حس مرهف

للأستاذ ثروت أباظه

قالوا إنه فلان بك ! ألم تسمع به ؟ فلم أكد أجيب بالنفي حتى ضج القوم بالعجب وقالوا : إنه فلان بك ! فقلت : تشرفنا . فقالوا : كيف لا تعرفه؟ فاعتذرت من جهلي الفاضح وصوبت في الرجل طرفي وصعّدته فإذا هو مترا كب اللحم مترا كم الشحم منبعج البطن صغير العينين أفطس الأنف ، له فم يوائم ضخامته يعلوه شاربان ينتهي سبالاهما عند أنفه ؛ وهكذا يرسم لك الشاربان والأنف بيضة كبيرة مكتملة ؛ فإذا نفث من فمه دخان شيشته كان من زحمتها وركام دخانها أشبه بقطار خرب

وتكلم . . فوالله ما وجدت أتفه من قوله ، فمن حديث عن غناء ، إلى نبذة عن هواه ، فإن سما فأخلاط غثة في السياسة . . وهكذا . . وهكذا جرى الحديث أو وقف على شر مايجري حديث أو يقف ، والرجل ماض في الثرثرة وأنا على موعد في هذا المكان فلا معدى لي عن السماع . إنه يدخل بلامناسبة في حديث عن إحساسه وشعوره . . إنه مرهف يعيش على أعصابه . . لا حول ولا قوة إلا بالله ! هو مريض . . لا بأعصابه ، ولكن بحب المرض بأعصابه

وبعض الناس ينتابهم هذا المرض ، وهو داء خلقه الله ولم يخلق له دواء ؛ فإياك إن قلت للمريض به إنه غير مريض غضب واعترته هزة مصطنعة ، وراح يرعش يده ، ويبرق بعينيه ، ويهدر بألفاظه . . إن هذا المرض في نظر أصحابه نوع من الرفاهية .

عرفت شاعراً مجيداً قرأت له قبل أن أعرفه ، وما كدت ألقاه حتى انطلق يذكر مصائبه فعرفت أنه موسر ، وأن زوجته حبيبته وملهمة وحيه ، وعرفت أن الحياة تمد له من أسباب السعادة وتطالعه بأبهى حللها . . عرفت هذا كله من مصائبه . . فهو يحول كل جميل إلى قبيح بمنظار داكن . . إنه مريض . . ولما حاولت أن آخذ بيده إلى الطريق جذب يده بعنف ، وآلمه أني لا أحس بآلامه . ولولا أنها المقابلة الأولى لرماني بجمود العاطفة وبلادة الحس . . فصرت كلما قابلته أرثي لحاله مهما كان مسروراً حتى أصبح يستطيب لقائي ويستروح عزائي !

انتبهت من هذه الخواطر على صوت موحيها الشهير وهو مايزال يروي لي — وهو يظن أني أسمعه — كيف بلغت أعصابه من الحدة مبلغاً لا يمكن للانسان أن يصل إليه ، ولكن لم يطل فقد وافته برقية قرأها فاستجمع في ذهنه مظاهر الحزن التي يقرأ عنها ثم ألصقها على وجهه فبدا وكأنه حزين . . فم مطبق ، وجبين مقطب ، ورعشة يد غير منتظمة ! ولكني أشهد الله لم يكن ثمة خلجة من حزن على وجهه . . ماذا ؟ . . قريب له قد مات . . البقاء لله . . هكذا قلنا . . ورجاه الجالسون — وأنا معهم — أن يتصبر فصبر ، ثم أطلقت نكتة فضحك . . لم يبك الرجل ، ولم يقم ذو الشعور الرهيف إلى مصابه ، بل أقام في مجلسه يكمل الحديث عن حس رقيق في خلاله وشعور رقيق اختصه به الله ...

لم أطق صبراً فقلت له : يا سيدي . . إنك تتكلم عن أعصابك تصفها بالرفاهة والرقة حتى كدنا نعتقد أنك نسيج من أعصاب غير مغلف؛ وها أنت ذا تقدم أعصابك في امتحان؛ وهاهي ذي تنجح نجاحاً لا تجوزه أقوى الأعصاب نسجاً وأشدها متانة . ألم يمت لك قريب . ؟ ألم تضحك ؟ . . لا . . لا تقل إنك تعزي نفسك ، إن العزاء يكون بعد النعي بيوم ؛ هذا لتين الأعصاب ، أما لرهفها فعشرة على الأقل . . يا سيدي مل بنا عن هذا الحديث أظنني كنت ثائراً . . ولا شك أنني فضولي ولكنني على أي حال (صاحب أعصاب أيضاً)

قام الرجل من جلسته ونظر إليّ في احتقار شديد وقال : أنت أهنتني ، وليس من دأبي أن أرد الإهانة بمثلها ، فإلى اللقاء .

— متانة أعصاب أيضاً !

سمعها الرجل بظهره فلم يشأ أن يطيل الحديث فانصرف

— من هو ؟

— غني يشتري أذناً صاغية لكلامه ، وحزناً لزعوم آلامه ، بأن يدفع ثمن القهوة

— قسمة ضيزى ! لقد غبنكم الرجل

— نعم أحسسنا بهذا منذ أيام ، فشكراً لك على إنقاذنا منه

— العفو !

ثروت أباظة